Arabic Renewal Journal مجلة التجديد العربي
مجلة دولية نصف سنوية محكمة شاملة تصدر عن المعهد العالمي للتجديد العربي المجلد الخامس-العدد الاول/ يناير 2025
ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

في قلب الإسناد في العربية : رأي ونظر

د. أحمد السيد محمد

مؤسسة (على خطى العرب) للإنتاج الإعلامي المرئي

Ahmedelsayed4060@gmail.com

الملخص:

هناك ظواهر كثيرة في اللغة العربية قام العلماء قديمًا وحديثًا يحللونها ويقفون عليها، ومن ثم إصدار الحكم عليها إما بالقبول أو بالرد، ومن هذه الظواهر التي وردت لها شواهد كثيرة في اللسان العربي :- ظاهرة قلب الإسناد، أو قلب الإعراب. ومن العلماء من أقر بوقوعها في الكلام وقَبِلَها، ومنهم من ردَّها وأوَّل شواهدها، ومن العلماء من توسط بين المذهبين، فوضع شرطًا للقبول. وتهدف هذه الدراسة إلى طرح نظرة جديدة في التعامل مع قلب الإسناد، تساعدنا في الحكم عليها، والتعرف على جانب من جوانب الإبداع اللغوي الذي يكمن في تلك الظاهرة. ومن أجل تحقيق ذلك اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي منهجًا للبحث. ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة : أن القلب في الإسناد نوع من أنواع شجاعة العربية، وشجاعة العربية مصطلح تدخل تحته ظواهر مختلفة، كالحذف والتقديم والتأخير ونحو ذلك، ويمكننا أن نُلحق بها قلب الإعراب. القلب نوع من أنواع النبر الدلالي في الكلام، وذلك لما فيه من العناية ببعض الألفاظ عن طريق تقديمها وتأخير سواها. القلب ليس مجرد رخصة يمكن للمتكلم أن يأخذ بها عند وضوح المعنى دون الإعراب، وإنما هو صورة من صور البلاغة، والخروج عن المألوف في التعبير، مما في ذلك من الإبداع والتطور.

الكلمات الدالة : القلب في الإسناد، قلب الإعراب، التحويل، القلب في القصة، الترخص.

Abstract

There are many phenomena in the Arabic language that scientists have analyzed and stood on, and then issued a judgment either by acceptance or response, and these phenomena that received many evidence in the Arabic tongue: - The phenomenon of the heart of attribution, or the heart of the expression. Among the scholars who acknowledged its occurrence in speech and before it, and some of them responded and the first evidence, and among the scholars who mediated between the two doctrines, so he set a condition for acceptance.This study aims to

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

offer a new look at dealing with the heart of attribution, helping us to judge it, and to identify the aspect of linguistic creativity that lies in that phenomenon .In order to achieve this, the researcher relied on the descriptive analytical approach as a research method .Among the most prominent findings of the study: that the heart in the attribution is a kind of courage Arabic, and the courage of Arabic term under which various phenomena intervene, such as deletion, submission, delay and so on, and we can append the heart of the expression. The heart is a kind of semantic tone in speech, because of the care of some words by presenting them and delaying others. The heart is not just a license that the speaker can take when the meaning is clear without expression, It is a form of rhetoric, a departure from the norm in expression, including creativity and development.
Keywords: heart in the chain of transmission, heart of grammar, transformation, heart in the story, leniency.

المقدمة :

إن البحث في الظواهر اللغوية الواردة في القرآن الكريم واللسان العربي شعره ونثره : – من أجلِّ نقاط البحث؛ وذلك لتعلقها بالكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لما في ذلك من إبراز جوانب مختلفة لإعجاز القرآن.

وما زالت هناك من الظواهر ما يحتاج منا إلى إعادة نظر وبحث، لأن اللغة التي أكرمنا الله بها دائمة التطور، فهي كائن حي كما يُقر ذلك العلماء، وظاهرة القلب في الإسناد لها الكثير من الشواهد، في القرآن الكريم، وكذلك في الشعر، وأيضًا في المحكي عن العرب من النثر.

نحتاج في هذا البحث أن نضع أيدينا على جانب من جوانب البلاغة لهذا الأسلوب الرفيع، ونناقش من يحمله على سبيل الغلط والسهو، لأن حمل مثل هذا الأسلوب على الغلط أو السهو أمر خطير لأنه سيجعلنا في عزلة عن فهم بعض النصوص، فضلًا عن إصابة اللغة بالجمود في بعض نواحيها.

أهمية البحث :

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تحلل أسلوبًا رفيعًا من أساليب اللغة، وهذا مما يساعد في فهم بعض التعبيرات القرآنية التي جاءت عليه، وتناقش هذه الدراسة مذاهب العلماء في التعامل مع تلك الظاهرة، توصلًا إلى قول سديد في الحكم على هذا الأسلوب.

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

الدراسات السابقة :

هناك مجموعة من الدراسات السابقة حول هذا الأسلوب منها :

- أسلوب القلب في القرآن الكريم (دراسة نظرية تطبيقية)، إعداد الباحث : علي بن جريد العنزي، وقد عرض الباحث في هذا البحث مذاهب العلماء في ظاهرة القلب، ثم ناقشها، وجاء بعد ذلك بشواهد قرآنية لهذا الأسلوب.
- ظاهرة القلب في الإعراب مفهومها– أنماطها – أثرها في معنى التركيب، إعداد الدكتور : علي أحمد الكبيسي، وعرض الباحث في هذه الدراسة القلب وأنواعه وبعض شواهده، مع مناقشة تلك الشواهد.
- قلب الإسناد في العربية دراسة آصلة ناخلة، إعداد الدكتور : زكريا شحاتة الفقي، وقد عرض الباحث في هذه الدراسة لأسلوب القلب في اللغة، وأضاف نظرًا دقيقًا يجمع بين القلب في الإسناد، وظاهرة الأضداد في اللغة، وهو يميل إلى إثبات القلب وفصاحته.

والدراسات السابقة قد تناولت موضوع(القلب في الإسناد)، وعرضت آراء العلماء في تلك الظاهرة، بين مؤيد ومعارض، غير أن بحثنا هذا قد أبان عن جوانب بلاغية تجعل من هذه الظاهرة أسلوبًا بديعًا اعتمد عليه البلغاء في كلامهم. والأساليب البلاغية – لا سيما القرآن الكريم – ما زالت زاخرة بكثير من الجماليات تحتاج إلى كشف اللثام عنها ليستبين جمال هذه اللغة.

الإعراب :

حبانا الله لغةً مُحْكَمةً قواعدُها وأصولها، من سماتها الاطراد والإعجاز، مما دعا علماءَ إلى القول بأنها إلهام من الله للبشر(راجع باب القول على أصل اللغة أألهام هي أم اصطلاح؟) في (ابن جني، الخصائص،1:41)، من أجل ذلك كان أي خروج عن تلكم القواعد داعيًا إلى أن يَشْحَذَ المهتمُ باللغة همتَه في بيانه وتحليله والوقوف على دقائقه والحكم عليه إما بالرد أو بالقبول.

ولما كان إعرابُ الكلمات مما له شأنٌ عظيم في اللغة، فالإعراب هو "الإبانة عن المعاني بالألفاظ" (ابن جني، الخصائص،1:35)، و"إنما سُمي الإعراب إعرابًا؛ لتبيينه وإيضاحه" (لسان العرب، مادة : رقم) :– سار العلماء خلفًا عن سلف يحافظون على القواعد المطردة للإعراب، كرفع الفاعل ونصب المفعول وما شابه. وانظر إلى سيبويه، وهو يذكر مجاري الإعراب والبناء؛ وما ذلك إلا لأنه يراها أساسًا يبنى عليه ما

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

سواه، فيقول : "إنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ؛ لأفرقَ بين ما يدخله ضربٌ من هذه الأربعة لما يُحدِثُ فيه العاملُ – وليس شيءٌ منها إلا وهو يزول عنه – وبين ما يُبنَى عليه الحرفُ بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدثَ ذلك فيه من العوامل، التي لكل عامل فيها ضربٌ من اللفظ في الحرف، وذلك الحرفُ حرف الإعراب" (سيبويه، الكتاب 1988، 1/ 13).

والعلماء من بعد سيبويه قد أحسوا بأهمية هذا الركن في لغتنا الحكيمة، يقول العلامة ابن جني : "ألا ترى أنك إذا سمعت : أكرم سعيدٌ أباه، وشكر سعيدًا أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجًا واحدًا لاستبهم أحدهما من صاحبه"(ابن جني الخصائص، 1:35).

بل إن الإعراب – عند بعضهم – كان للغة وشيًا، وحلية متعديًا فائدة الإبانة، والتفريق بين المعاني المتواردة على اللفظ، يقول ابن قتيبة كلامًا نفيسًا تحت باب عنوانُه : (باب ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز)، ولترجمة الباب معانٍ عالية لمن أراد أن يتأمل! يقول ابن قتيبة : (ولها – يقصد العرب – الإعراب الذي جعله الله وَشيًا لكلامها، وحِليةً لنظامها، وفارقًا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول، لا يُفرَّق بينهما – إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما – إلا بالإعراب" (ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن،2002، 18).

ومما يُقضَى منه العجب أنه مع هذا الاحتفاء من العلماء قديمًا وحديثًا بما للإعراب من فوائد جمة :– نجد بعض الأصوات التي حطت من منزلة الإعراب، ولم تر له فائدة، من هؤلاء : محمد ابن المستنير(قطرب)، وانظر قوله في(الزجاجي، الإيضاح في علل النحو)، وقد تابعه من المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس، وانظر قوله في (من أسرار العربية ص208)، لكن كل ذلك دعواتٌ لم تلق القبول، بل رُدَّ عليها بما أبطلها.

على أية حال فالإعراب أمر لا نعدم أهميته في اللغة، ولذا عندما وجد العلماء ما ظاهرُه الإخلال بقواعد مستقرة في الإعراب:– انبروا يحللون ويناقشون هذه الشواهد الواردة، وعلى سبيل المثال:

قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وعَمِلَ صَالحًا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة المائدة : 69] ، حيث جاءت كلمة(الصابئون) – في هذا الموضع – بالرفع، وكان الظاهر أن تكون بالنصب عطفًا على ما قبلها كما في (البقرة : 62) و(الحج : 17).

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

وانظر إلى تخريج العلماء للفظة(الصابئون) في كتب التفسير اللغوية كالتفسير البسيط للواحدي (7: 472)، أو الكشاف للزمخشري (1: 660). بل إن الأمر لم يقف عند المفسرين، فالنحاة قد ذكروا مثل هذه الشواهد في كتبهم، وعلى رأس هؤلاء سيبويه حيث يعلق على هذه الآية بقوله :" وأما قوله – عز وجل – [والصابئون]، فعلى التقديم والتأخير، كأنه ابتدأ على قوله (والصابئون) بعد مضي الخبر"(سيبويه، الكتاب 1988، 2: 155).

وغير ذلك من الشواهد الكثيرة، التي جعلت العلماء يتبارون أيهم يأتي بتخريجات، تعيد الشاهد إلى المطرد من قواعد الإعراب.

ومن الظواهر الواردة في القرآن الكريم، وفي لسان العرب شعره ونثره :– ظاهرة (القلب في الإسناد)، بجعل الفاعل مفعولًا، والمفعول فاعلًا مثلًا، كقولنا :(خَرَقَ الثوبُ المسمارَ)، والقياس يقتضي أن يقال : خرق المسمارُ الثوبَ، ولهذه الظاهرة شواهد كثيرة ذكرها العلماء في كتبهم، لكن ما يعنيني في هذا البحث هو ذكر مذاهب العلماء في هذا الأسلوب، ثم ترجيح أحدها، وتقديم نظر مختلف في توجيه هذه الظاهرة.

تعريف (القلب في الإسناد) :

أولا: القلب لغة :" تحويل الشيء عن وجهه" (لسان العرب مادة : قلب)، أما الإسناد لغة فهو : " إضافة الشيء إلى الشيء" (التعريفات للجرجاني 2003، 27)، والإسناد اصطلاحًا: " ضم إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التامة، أي: على وجه يحسن السكوت عليه"(السابق ، نفس الموضع).

أما مصطلح (القلب في الإسناد) فلم يرد عن العلماء بهذا الشكل، بل اختلفوا في التعبير عنه، فمثلًا سيبويه ذكره تحت اسم (السعة)، يقول : "فأما قوله (أُدْخِلَ فوه الحجرَ)، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد : أدخل فاه الحجرُ، كما قال : أدخلتُ في رأسي القلنسوةَ، والجيد : أدخلت في القلنسوةِ رأسي" (سيبويه، الكتاب 1988 ، 1:181).

وذكره المبرد أيضًا إلا أنه سماه (التحويل) في كتاب (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد) حيث يقول : " ومما في القرآن مما يجيء مثله في كلام العرب من التحويل، كقوله – تعالى – : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوء بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص : ٧٦] وإنما العصبة تنوء بالمفاتح، ومن كلام العرب: إن فلانة لتنوء بها عجيزتها. ويقولون: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت الخف في رجلي. وإنما

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

يكون مثل هذا فيما لا يكون فيه لبس، ولا إشكال، ولا وهم". (المبرد ، ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، 1350هـ ، ٣٨)، وسماه المبرد أيضا (القلب) في الكامل حيث يقول : "وقوله (رفعت لناري) من المقلوب، إنما أراد : رفعت له ناري، والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار) (المبرد، الكامل ، 1997، ١ / 290)، ونجد ابن فارس سماه بـ(القلب في القصة) في كتابه الصاحبي (1997 ، 153).

وعلى كلٍّ فلا مشاحاة في الاصطلاح، فقلب الإسناد "جعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه، على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر" (الإيضاح في علوم البلاغة ٩٧/٢).

مذاهب العلماء في القلب :

اختلفت كلمة العلماء في القلب بين مؤيد ومعارض ومتوسط كما سيظهر فيما يلي :

المذهب الأول :

أن القلب أسلوب فصيح جاء في كلام العرب، ونزل به القرآن الكريم، ومن أصحاب هذا المذهب: المبرد (انظر: الكامل ، 1997، ١ / 290) وابن فارس (انظر : الصاحبي في فقه اللغة ،1997 ، 153).

وأقر ابن هشام – في (مغنى اللبيب) – بأنه من فنون العرب القولية، وأفرد له بابًا، فقال : "من فنون كلامهم القلب، وأكثر وقوعه في الشعر" (مغنى اللبيب،1991، 684/2).

وكذلك السكاكي ممن أثبت القلب، بل راح يعدد بعض فوائده في الكلام، فقال عن القلب :" وهي شعبة من الإخراج لا على مقتضى الظاهر، ولها شيوع في التراكيب، وهي مما يورث الكلام ملاحة، ولا يشجع عليها إلا كمال البلاغة، تأتي في الكلام، وفي الأشعار، وفي التنزيل".(السكاكي، مفتاح العلوم، 1987، 211).

وللشنقيطي كلام نفيس في(أضواء البيان) أحب أن أورده، يقول عند قوله – تعالى – : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾[الأحقاف : 34] :" هذا النوع الذي ذكروه من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولا، والمفعول فاعلا، ونحو ذلك، اختلف فيه علماء العربية ، فمنعه البلاغيون إلا في التشبيه فأجازوا قلب المشبه مشبهًا به، والمشبه به مشبهًا بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسرًّا لطيفًا، كما هو المعروف عندهم في مبحث التشبيه بالمقلوب، وأجازه كثير من العلماء.

والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا أنه يحفظ ما سمع منه ولا يقاس عليه، ومن أمثلته في التشبيه قول الراجز :

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَمَاؤُهُ

أي : كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر :

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح، فقلب التشبيه ليوهم أن الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه.

قالوا : ومن أمثلته في القرآن :﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾[القصص: 76] لأن العصبة من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح أي: تنهض بها بمشقة وجهد لكثرتها وثقلها، وقوله – تعالى – : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: 66] أي : عموا عنها.(الشنقيطي، أضواء البيان،2019، 7:417). إلى غير ذلك من العلماء الذين أثبتوا القلب في كلام العرب ولم يمنعوه.

المذهب الثاني :

القول بمنع وقوع القلب، وأن كل ذلك متأول على غير القلب، فيرى أصحاب هذا الاتجاه كراهية القلب، وأنه إنما صدر عن خطأ، ولا يجوز القول به في القرآن الكريم لاستحالة وقوع الخطأ فيه.

ومن أصحاب هذا الاتجاه : الخفاجي، الذي جعل القلب في الكلام من أسباب فساد المعنى، فيقول : "ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوبًا، فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه، ولذلك أمثلة مذكورة " (الخفاجي، سر الفصاحة،1982، 114)، ثم ساق بعض الشواهد الشعرية والنثرية التي وقع فيها القلب، ثم بين ما فيها، وكيف أن القلب أدى إلى فساد المعنى، أما ما وقع في القرآن الكريم مما يذكره العلماء تحت باب القلب، فقد أورده الخفاجي وردَّ وقوع القلب فيه وأوَّله على غير ذلك، فعلى سبيل المثال قوله – تعالى – : :﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾[القصص: 76] قال عنها : "فليس من هذا بشيء، وإنما المراد – والله أعلم – أن المفاتح تنوء بالعصبة، أي : تميلها من ثقلها، وقد ذكر هذا الفراء وغيره". (الخفاجي، سر الفصاحة،1982، 116)، وانظر هذا التأويل عند الفراء في (معاني القرآن، 2:310).

كذلك الآمدي كان من المانعين لوقوع القلب في الكلام، بل إنه يصرح بأن القلب سهو وخطأ وقع فيه العرب، : يقول: "المتأخر لا يرخص له في القلب؛ لأن القلب إنما جاء في كلام العرب على السهو، والمتأخر

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

إنما يحتذي على أمثلتهم، ويقتدي بهم، وليس ينبغي له أن يتبعهم فيما سهوا فيه"(الآمدي، الموازنة، 1:217). أما الشواهد القرآنية والشعرية التي يحتمل وقوع القلب فيها، فقد ذكرها، وأوَّلها على غير القلب كما فعل الخفاجي، وما لا يمكن تأويله فقد جاء – عنده – على سبيل الغلط، يقول : "ولكن القلب القبيح لا يجوز في الشعر، ولا يجوز مثله في القرآن، وهو ما جاء في كلامهم على سبيل الغلط"، ثم ساق أبياتًا منها "قول الفرزدق يصف ذئبًا :

وَأَطْلَسَ عَسَّالٍ ومَا كَانَ صَاحِبًا رَفَعْتُ لِنَارِي مُوهِنًا فَأَتَانِي

وإنما أراد : رفعها للذئب"، ولم يكتفِ الآمدي بذكر رأيه في هذا الأسلوب، بل جاء بقول المبرد أن : "القلب جائز للاختصار"، وناقشه وردَّ عليه(الآمدي، الموازنة 1/ 220).

ومما يدعونا للعجب قول الآمدي بعد ذلك : "ويجوز أن يكون الفرزدق في هذا البيت سها أو اضطر لإصلاح الوزن"(السابق : نفس الموضع). فانظر إلى الآمدي وهو يفترض سهو الشاعر واضطراره حتى لا يقر بوقوع القلب!

وممن رد هذا الأسلوب ردًّا، ولم يقبله ولا حتى على شرط :– حازم القرطاجني في (منهاج البلغاء)، إذ يقرر أن القلب إذا وقع في الكلام فقد " ذُهِبَ بالكلام مذهبٌ فاسدٌ، وكان ذلك خطأ في العبارة". (حازم القرطاجني، منهاج البلغاء صـ180).

ومن جاء بالقلب وهو لا يقصد القلب، بل يريد المعنى الجديد الذي صار إليه اللفظ فذلك عنده " قبيح؛ لأنه وضع المعنى البعيد الذي لم يؤلف موضع المعنى القريب المألوف، فلا يجب أيضًا سلوك هذا المذهب، فكلا التأويلين في هذا الباب خارج بالكلام عن المهيع الذي يكون للمعنى فيه موقع من النفس ومكانة مكينة من الفهم. فالواجب في فصيح الكلام أن يكون خاليا منه". (المرجع السابق، الموضع نفسه).

وهكذا يمضي حازم في رد القلب مائلًا إلى أن هذا من قبيل ما وقع غلطًا في الكلام، إما للاضطرار، أو لقصد قائله الاتساع والتفنن في القول.

وهناك اتجاهات أخرى في القلب، منها ما يمكن أن يكون مذهبًا مفردًا في هذه المسألة، كقبول بعضهم القلب في الإسناد بشرط أن يتضمن بلاغة وفائدة في المعنى، وإلا فلا.

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

من هؤلاء الخطيب القزويني، حيث يقول : "والحق أنه إن تضمن اعتبارًا لطيفًا قُبل، وإلا رُدَّ"(الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني 2:98).

واتجاه آخر يرى القلب هذا من ضرورات الشعر، لا يصير الشاعر إليه إلا عند الاضطرار، يقول القيرواني : "ومما يجوز له – أي : للشاعر عند الاضطرار – قلبُ المعنى إذا كان الكلام لا يُشْكِلُ، وذلك أن يقول : أُدخِلَ فوه الحجرَ"(القيرواني، ما يجوز للشاعر في الضوروة،182).

وإلى هذا ذهب ابن عصفور أيضًا في حديثه عن الضرورات، حيث قال:" والقلب مقيس في الشعر بلا خلاف؛ لكثرة مجيئه فيه، وقد جاء أيضًا في الكلام ... حكى أبو الحسن : عرضت الناقةَ على الحوض، وعرضتها على الماء، يراد بذلك : عرضت الماءَ والحوضَ عليها. إلا أن ذلك لم يكثر في الكلام كثرته في الشعر، فلم يجز لذلك القياس عليه ". (ضرائر الشعر، ابن عصفور، 1980، 271)

ولكن مثل هذه الاتجاهات يمكن أن تندرج تحت أحد المذهبين السابق ذكرهما، ولا أريد أن أستفيض في ذكر العلماء الذين قبلوا أو رفضوا هذه الظاهرة، إذ ما يهمنا الآن هو أن نشير إلى جوانب في الظاهرة؛ لعلها تكون معينًا لنا في الحكم على هذا الأسلوب.

أولا : القلب صورة من صور (شجاعة العربية):

يقول ابن جني في الخصائص "باب في شجاعة العربية : اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف".(ابن جني، الخصائص،2:362).

هذا النص من ابن جني فيه تأصيل لصفة من صفات لغتنا العربية، وهي صفة الشجاعة، نعم، ويظهر هذا في نواحٍ كثيرة في اللغة، يظهر ذلك في الحذف مثلًا، الذي هو تقليل من اللفظ، فأي لغة تؤدي المعنى دون نقص مع حذف بعض كلماتها؟ بل مع حذف كل كلماتها؟ بل إنها قد تؤدي مع الحذف ما لا تؤديه مع الذكر.

وهل شجاعة العربية مقصورة على هذا الذي ذكره ابن جني فقط؟ بالطبع لا، فهناك أمور كثيرة يمكن أن تندرج تحت ما يسمى بشجاعة العربية، ولصاحب النظر الدقيق أن يضع يده على مثل ذلك.

انظر إلى ابن الأثير وهو يطلق على (الالتفات) هذا المصطلح، فيقول : "ويسمى أيضًا (شجاعة العربية)؛ وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

يتورده سواه. وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات"(ابن الأثير، المثل السائر،2:168).

فكما دخل الالتفات عند ابن الأثير في شجاعة العربية، فليدخل القلب في الإسناد، فهما من باب واحد، وهو الإتيان بغير المألوف، مما في ذلك من إثارة الذهن، واستمالة انتباه السامع، واستمع إلى الزمخشري في الكشاف، وهو يبين لنا محاسن الالتفات في الكلام، فيقول : "هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله – تعالى – : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[يونس: 22]" إلى أن قال : "وذلك على عادة افتنانهم في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد". (الزمخشري، الكشاف،1998، 1:14).

وأي إيقاظ للسامع أقوى من أن يقلب المتكلم ما استقر في كلامه أنه الفاعل فيجعله مفعولًا، وما استقر في كلامه أنه مفعول فيجعله فاعلًا، تأمل قول ابن مقبل حيث يقول :

ولا تَهَيَّبُنِي المَوْمَاةُ أَرْكَبُهَا إِذَا تَجَاوَبَتِ الأَصْدَاءُ بِالسَّحَرِ

فهذا على القلب، والأصل فيه أن يقول : لا أتهيبُ المومَاةَ– وهي الصحراء – التي يتجاوب فيها الأصداء – والصدى هو ذَكَرُ البُوم – في وقت الليل، الذي تشتد فيه مخاوف الإنسان.

فهذا الشاعر لا يريد أن يأتي بالمعنى كما يتوقعه السامع، وهو أن يقول : لا أخاف ولا أتهيب الصحراء على هذه الحال لشجاعتي وقوتي وغير ذلك، بل لم يرضَ إلا أن جعل الصحراء إنسانًا وألبسها من صفاته، فجعلها هي التي لا تهابه ولا تخشاه. فما أجمله من قلب في الإسناد! يبث الروح في الجمادات، ويخلق جوًّا من التفاعل الحي فيما لا حياةَ فيه، ويجعل السامع يتلذذ بهذا الأسلوب، الخارج عن المألوف.

ثانيًا : هل الإعراب الأصلي مجرد رخصة يمكن الاستغناء عنها بغيرها؟

هل الإعراب الأصلي مجرد قرينة يمكن للمتكلم أن يترخص فيها عند وجود قرائن أخرى تحفظ المعنى؟ فالرخصة كما يذكر الدكتور تمام حسان هي :" تركيب الكلام على غير ما تقضي به القاعدة؛ اتكالًا على أمن اللبس، فإن لم يؤمن اللبس نُسب الكلام إلى الخطأ لا إلى الترخص".(تمام حسان، البيان في روائع القرآن،1993، صـ9).

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

ويقرر الدكتور تمام حسان بعد ذلك أن القلب ما هو إلا رخصة يمكن للمتكلم أن يأخذ بها اعتمادًا على قرائن أخرى تحفظ المعنى، ولم يُشر إلى الفائدة المعنوية التي يضيفها قلب الإسناد إلى الكلام، يقول : "مثال ذلك أن العرب حين قالت: (خرق الثوبُ المسمارَ)، برفع الثوب، ونصب المسمار علمت من خلال المناسبة المعجمية – التي هي فرع على قرينة التضام يسمى التوارد – أن الفعل (خرق) يتطلب المسمار فاعلًا، ولا يصلح الثوب أن يكون فاعله؛ لأن الثوب لا يكون خارقًا للمسمار عقلًا أو عادة. فلما أغنت قرينة التضام إلى جانب قرائن أخرى، كاسمية الفاعل ورتبته متأخرًا عن الفعل، إلخ... أمكن تجاهل دلالة الإعراب على المعنى النحوي، فكان الترخص بنصب الفاعل، ورفع المفعول بعكس القاعدة". (المرجع السابق، نفس الموضع).

والباحث لا يرى ما يراه الدكتور تمام حسان، فليس قلب الإسناد رخصة في الكلام، بل هي مطلب من مطالب المتكلم، يؤدي بها معنى لولاها لما أُدِّيَ.

بالإضافة إلى أن فكرة الترخص هذه قد تضر اللغة أكثر مما تفيدها، وهذا ما أشار إليه الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، حيث قال : "ينبغي أن يكون واضحًا منذ البدء أن ليس المقصود بـ(الترخص) هو فتح الباب على مصراعيه أمام العبث في علاقات الجملة وقرائنها اعتمادًا على فهم المعنى وعدم اللبس". (محمد حماسة،1984 ص٣٢١).

بل كان القلب عند الدكتور محمد حماسة مما تُراد به البلاغة، ومما يعتمد عليه المتكلم لإيصال معنى فريد، فإنه بعد عرض رأي ابن عصفور في المسألة يقول : "إننا نرى أن قلب الإعراب على فرض إجازته وسماح اللغة به يُعَدُّ أيضًا من قبيل (كسر البناء) الذي لا يكون إلا لغاية تطلب، و مقصد يراد". (المرجع السابق،٣٨١).

وأورد هنا كلامًا نفيسًا له عن قلب الإعراب في ختام حديثه عن هذه الظاهرة، يقول :"ونحن – من بعدُ – نرى أن الكلام المقلوب أدعى إلى إثارة الذهن بالتفكير فيه، وتشربه على تؤدة وريث، لأنه يصدم الذهن بما لم يعتد عليه من الاستعمالات اللغوية، فيجد الإنسان نفسه مضطرًا لإعادة النظر وإنعام الفكر فيكون ذلك – ولو كان ممجوجًا – أمكن في النفس، وأشبه بعدم النسيان، إذن إن الإنسان عادة ما يلصق بذاكرته ما يخرج عن المألوف، ولعل هذا مطلب يكسر له قانون الإعراب أو يغير عن وجهه".(المرجع السابق،صـ٣٨٣).

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

وهذا المعنى مع ما فيه من البلاغة والبيان إلا أنه يجذب انتباه السامع ويفعل فيه فعل الالتفات، الذي عده ابن الأثير: "خلاصة علم البيان التي حولها يُدندَنُ، وإليها تستند البلاغة، وعنها يُعنعَن".(ابن الأثير، المثل السائر،2:167).

وطبيعة لغتنا هي الخروج عن المألوف، والانحراف المحمود في القول، فـ"كلام العرب كثير الانحرافات، و لطيف المقاصد و الجهات، و أعذب ما فيه، تَلَفُّتُهُ و تَثنيه" (ابن جني، المحتسب،1994، 2:86) ، ولذلك إذا جعلنا هذا النظر سبيلنا في فهم بعض أساليب اللغة وجدنا جمالياتها، وبلاغتها واضحة، ولن نتكلف في رد بعض الأساليب، "و مَنْ عَرَفَ طريق القوم في اللغة سقطت عنه مئونات التعسف و الشُّبَه" (المرجع السابق،1:171).

وبناء على ما ذكرنا، يجب علينا أن ننظر إلى القلب في الإسناد – سواء أكان في القرآن أو غيره – على أنه نوع من أنواع الخروج عن المألوف في التركيب، طلبًا للمبالغة واستمالة إعجاب السامعين.

ثالثًا: القلب صورة من صور النبر الدلالي في الجملة:

قال ابن منظور :" النَّبْرُ بالكلامِ: الهَمْز. قَالَ: وكلُّ شَيْءٍ رَفَعَ شَيْئًا، فَقَدْ نَبَرَه".(لسان العرب مادة: نبر)، هذا من الناحية اللغوية، النبر هو رفع الشيء، وهذا لغرض، وهو إظهاره وإيضاحه على ما سواه.

أما من الناحية الاصطلاحية فلم يذكر القدماء تعريفًا للنبر، لأنهم لم يدرسوه دراسة موسعة كما فعلوا في ظواهر أخرى، إلا أنهم أشاروا إشارات متفرقة إلى بعض التغيرات الصوتية التي تدخل الكلمة أو الجملة، يمكننا أن نلحقها بالنبر، من ذلك إشباع الحركات حروفًا ونحو ذلك مما ذكره ابن جني في الخصائص تحت باب بعنوان (باب في مضارعة الحروف للحركات والحركات للحروف). (ابن جني، الخصائص،2:317)، ولكن ليس هذا غرض بحثنا الذي نريده هنا.

ويمكننا أن نورد تعريف النبر عند الدكتور تمام حسان، فقد ذكر أن النبر هو "وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات". (تمام حسان،1979، صـ194).

وقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس نوعًا من النبر سماه بـ(نبر الجملة) وهو " أن يعمد المتكلم إلى كلمة في جملته فيزيد من نبرها ويميزها على غيرها من كلمات الجملة رغبة منه في تأكيدها أو الإشارة إلى غرض خاص". (إبراهيم انيس، ١٩٨٤ صـ174).

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

ثم يمثل ذلك بقوله : "مثل " هل سافر أخوك أمس ؟ " يختلف الغرض منها باختلاف الكلمة التي زيد نبرها ، فحين نبر كلمة (سافر) قد يكون معناها أن المتكلم يشك في حدوث السفر من أخي السامع، ويظن أن حدثاً آخر غير السفر هو الذي تم، فإذا ضغط المتكلم على كلمة (أخوك) فهم من الجملة أن المتكلم لا يشك في حدوث السفر، وإنما الذي يشك فيه هو فاعل السفر، فربما كان أباه أو عمه أو صديقه لا أخاه، وأخيرًا إذا زيد نبر كلمة " أمس " فهم من الجملة أنَّ الشك في تأريخ السفر". (المرجع السابق، الموضع نفسه).

وهذا الذي سماه الدكتور إبراهيم أنيس بنبر الجملة يمكننا أن نرى العرب قد أبانوه في كلامهم عن طريق ظاهرة طالما أفاض فيها القدماء وهي ظاهرة(التقديم والتأخير)، وراجع كلام العلامة عبد القاهر الجرجاني عن نظرية(النظم)(عبد القاهر الجرجاني، صـ51).

وما القلب في الإسناد إلا تقديم وتأخير لأركان الجملة، إلا أنه لا يُبقي على الإعراب الأصلي، فليلحق القلب بالنبر الذي يكون في الجمل، دلالة على معنى نفيس غامض، يحتاج إلى من يتأمله فيدركه. انظر إلى قول الأخطل يهجو رهط جرير:

مِثْلُ القَنَافِذِ هَدَّاجُونَ قَدْ بَلَغَتْ نَجْرَانَ وإنْ بَلَغَتْ سَوْءَاتِهِمْ هَجَرُ

والقلب في قوله : (بَلَغَتْ سَوْءَاتِهِمْ هَجَرُ) والأصل: بَلَغَتْ سَوْءَاتُهُمْ هَجَرَ، ولكنه قدم وأخر، ولم يبقِ الإعراب على الأصل، بل قلب، وقبل أن نسرع إلى القول بأنها ضرورة وقع فيها الشاعر، يمكننا أن نلمس بلاغة من وراء هذا، فالشاعر هنا جعل (هجر) وهي بلد باليمن، هي التي تبلغ السوءات، وفي هذا دليل على أن السوءات زادت وانتشرت واستقرت لقوم جرير، حتى إنها صارت كأنها مكان مستقر، يفد إليه الناس، و(هجر) مع أنها اسم مكان إلا أنها خُلع عليها صفات الإنسان كالبلوغ إلى الأماكن.

فالنظر إلى القلب في الإسناد على أنه صورة من صور شجاعة العربية وعلى أنه صورة من صور النبر الدلالي :- يجعلنا نحكم عليه بالفصاحة والبلاغة المتناهية، ولا نقول كما قال بعض المجتهدين أنه خطأ أو سهو واقع في كلامهم.

انظر إلى قوله – جل وعلا – : ﴿وقد بلغني الكِبَرُ﴾[آل عمران: 40]، فلا شك في أن هذا أبلغ من قول القائل: (وقد بلغت الكبر)، وذلك من حيث كان ما جاء في الآية الكريمة صادمًا للسامع، و(نابرًا) له ومنبهًا،

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

يجعله يسأل نفسه: هل الكبر إنسان يبلغ ما يريد؟ بالطبع لا، ولكن البلاغة القرآنية اقتضت أن يأتي الأسلوب على طريقة القلب حتى يسبغ على الكبر وهو أمر معنوي صفة حسية يتصف بها ذوو الإرادة.

الخاتمة :

القلب في الإسناد ظاهرة لها الكثير من الشواهد في مختلف المصادر اللغوية، وقد توصلت الدراسة إلى ما يلي :

1- القلب ظاهرة لا يمكن تجاهلها أو حملها على الشذوذ، لأننا بذلك نهمل الكثير من الشواهد الواردة في الشعر والنثر، وخاصة الشواهد الواردة في القرآن الكريم.

2- يمكن أن ينظر إلى قلب الإعراب على أنه صورة من صور شجاعة العربية، تلك اللغة التي أعطاها الله خصائص ليست موجودة في لغة سواها.

3- يمكن أن يحمل القلب على أنه صورة من صور النبر الحادث في الجملة؛ لتنبيه المخاطب إلى معنى دقيق، لن يلتفت إليه إلا إذا صُدم بتركيب على غير المألوف.

قائمة المصادر والمراجع :

- أنيس، إبراهيم. الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر.
- الشنقيطي، محمد الأمين. (١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ، دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة الخامسة.
- الزجاجي، أبو القاسم. (1986م).الإيضاح في علل النحو ، تحقيق : د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة.
- القزويني، محمد بن عبد الرحمن. الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.
- حسان، تمام. (1993م). البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، الطبعة الأولى.
- الدينوري، ابن قتيبة. تأويل مشكل القرآن، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- الجرجاني، علي بن محمد. التعريفات. تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث.

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

- الواحدي، أبو الحسن. (١٤٣٠ هـ). التفسير البسيط، تحقيق: د. محمد بن صالح الفوزان، جامعة الإمام، الطبعة الأولى.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (2006م). الخصائص، تحقيق : د. محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
- الجرجاني، عبد القاهر. (١٤١٣هـ – ١٩٩٢م). دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة.
- الخفاجي، ابن سنان. (١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م). سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
- ابن فارس، أحمد. (1997م). الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق : أحمد حسن بسج، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى.
- ابن عصفور، علي بن مؤمن. (١٩٨٠ م). ضرائر الشِّعْر، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- عبد اللطيف، محمد حماسة. (1984م). العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، جامعة الكويت.
- المبرد، محمد بن يزيد. (1997م). الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. (1988م). الكتاب، تحقيق : محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- الزمخشري، محمود بن عمر. (1407هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- المبرد، محمد بن يزيد. (1988م). ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، تحقيق: د. أحمد محمد سليمان أبو رعد، جامعة الكويت، كلية الآداب، الطبعة الأولى.

ISSN Online 2697-2026 ISSN Print 2792-7369

- القيرواني، محمد بن جعفر القزاز. ما يجوز للشاعر في الضرورة، حققه وقدم له وصنع فهارسه: الدكتور رمضان عبد التواب، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار العروبة، الكويت – بإشراف دار الفصحى بالقاهرة.
- ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م). المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.
- الفراء، أبو زكريا يحيى. معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة الأولى.
- ابن هشام، عبد الله بن يوسف. (1991م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر. (١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م). مفتاح العلوم. ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية.
- أنيس، إبراهيم. (1978م). من أسرار العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة.
- حسان، تمام. (1990م). مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- القرطاجني، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي.
- الآمدي، أبو القاسم. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، المجلد الأول تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – الطبعة الرابعة (سلسلة ذخائر العرب (٢٥)).